

الحجّ في الأدب العربي

على كُـلِّ أفق بالحجاز ملائِكُ
تـزف تحايا الله والبركاتِ
لدى الباب جبريلُ الأمين، براحِه
رسائلُ رحمانية التّفحاتِ
وما سكب الميزابُ ماءً، إمّا
أفاضَ عليكَ الأجرَ والرحماتِ
وزمزم تجري بين عينيكَ عينا
من الكوثر المعسول منفجراتِ
ويرمون إبليس الرجيم، فيصطلي
وشانيك نيراناً من الجمراتِ
لك الدين يارب الحجيج جمعتهم
لبيتِ طهورِ السّاحِ والعَرَصاتِ



أرى النَّاسَ أصْنَافاً، وفي كلِّ بقعةٍ
إليك انتموها من غربة وشتابٍ
تساووا، فلا الأنسابُ فيها تفاوتٌ
لديك، ولا الأقدارُ مختلفاتٍ
عنتُ لك في التُّربِ المقدَّسِ جبهةً
يدين لها العاقي من الجهاتِ
وركب كإقبال الزمان محجلاً
كريم الحواشي كابر الخطواتِ
يسير بأرض أخرجت خير أمةٍ
وتحت سماء الوحي والسورابِ
يفيض عليها اليُمنُ في غدواته
ويُضفي عليها الأمانَ في الروحاتِ
إذا زرت بعد اليوم قبر محمدٍ
وشاهدت مثوى الأعظم العطرابِ
ستهمي مع الدمع العيونُ مهابةً
لأحمد بين السُّتر والحُجراتِ
ويشرق نورٌ تحت كلِّ ثنيةٍ
وضاع أريجٌ تحت كلِّ حصاةٍ
لمظهر^(١) دين الله فوق تنوِّفةٍ^(٢)
وباني صروح المجد فوق فلاةٍ



يَا مَوْطِنًا مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ لَا
يُمِحُّ .. وَلَا تَعْفُو عَلَيْهِ رِيحُ
بِيَدِيهِ شَادَ أَجَلٌ بَيْتٍ يُبْتَنِي'
لِلَّهِ يُغْدِي نَحْوَهُ وَيُورِخُ
تَهْوِي النُّفُوسُ إِلَيْهِ .. فَهِيَ بِسَاحِهِ
لَا إِثْمَ يُرْهَقُهَا وَلَا أَتْرَاحُ
وَهُنَاكَ «إِسْمَاعِيلُ» قَامَ مُلَبِّيًا
وَكِلَاهُمَا بِدَعَائِهِ مِلْحَاحُ
قِرَانٍ مِنْ وَحْيِ الْإِلَهِ سَنَاهُمَا
خُلِقَ أَبْرُؤُ . وَعِفَّةٌ وَسَمَاحُ
رَبَّاهُ .. هَذَا الْبَيْتُ بَيْتُكَ خَالِصًا
وَمَعَالِمُ التَّوْحِيدِ فِيهِ صَرَاحُ
أَرْنَا مَنَابِكُنَا عَلَى النَّهْجِ الَّذِي
يُرْضِيكَ عَنَّا .. لَيْسَ عَنْهُ بَرَاحُ



أَوْصَى بِهَا الرَّحْمَنُ ، فَهِيَ عَظِيمَةٌ
مَنْ غَيْرَهَا الرَّحْمَنُ قَدْ أَوْصَى بِهَا؟
لَوْ لَمْ تَكُنْ خَيْرَ الْبِلَادِ عَلَى الثَّرَى
مَا كَانَ بَيْتُ اللَّهِ فَوْقَ تَرَابِهَا
وَلَمَّا اصْطَفَاهَا اللَّهُ قَبْلَةَ خَلْقِهِ
وَلَمَّا سَعَى السَّاعُونَ نَحْوَ رِكَابِهَا



ولما اصطفى خير البرية مرسلًا
 بالحق والتوحيد من أعرابها
 وقف على رأس الخلو بدينها
 وبأهلها تاجاً، ألا أعظم بها
 النسك والإيمان من أفيائها
 والعدل والإحسان من أطياها
 فكأنها صوت الزمان وثغره
 وكان «زمزمها» زلال رضاها
 «سجيلها» باق على أعدائها
 وعلى حقول الحق: قطر سحابها
 أتراها خير الترائب ذا «منى»
 وهناك «طيبة» أين من أتراها؟
 دانت لها الدنيا، فاعرف الوري
 شعباً طهور الظلّ مثل شعابها
 لو يوضع البيت العتيق بكفة
 والأرض في الأخرى لأعد لها
 حمداً لك اللهم أن أبصرتني
 درب الحجاز فكنت من أنسابها
 هي قلب هذي الأرض، مقلة وجهها
 والباقيات علقن في أهدابها
 خلق النهار كصبحها متأقفاً
 والليل داجٍ مثل كون حجابها

فسل «الصفاء» و«منى» وكلّ ثنّية
 عن أشرف المشين فوق رحابها
 حجت لها قبل الأنام سماؤها
 بحجيج «سجيل» على سلاها
 أرض يكاد - لفرط عزّة رملها -
 يروي عطاشى الماء وهج سراها
 جمع الزمان جميعه فإذا به
 يجثو خشوع القلب في محرابها
 من ها هنا مرّ «الأمين» ومن هنا
 أسرى وفاض العدل من «أبوابها»
 ما زال يخرق الفضاء «بلاها»
 هرم الزمان ولم تنزل بشبابها
 عشرون عاماً ما اغتسلت من اللظى
 واليوم أبردني عظيم شرابها
 أهلي .. من ازدانوا بنور فضائها
 وأحبّتي في الله .. من أحبّابها!
 أبكي على وطني .. وحين دخلتها
 صار البكاء توسلاً لثوابها!!
 أعظمت من شوقي خيول تشرّدي
 لما رمتني في نعيم هضابها..!
 وطني عزيز .. والأعزّ من الثرى
 ديني، فما روعي بغير كتابها؟



فوحق من خلق الخليفة واستوى
 حلمي يكون القلب عُتبة باها
 فاغسل فؤادك يا شريد بمائها
 أو شحّ ماء فاغتسل بترابها!



بيت بنته يد التقوى وشيئده أبو النبيين.. للأجيال يرفعه
 أمجاده في كتاب الدهر حافلة ثوب الجلال عليه الرب يخلعه
 تدرعت بسياج الدين حُرْمته والله من عبث الباعين يمنع
 أولاه بالحجّ تشريفاً وتكرمةً حتى غدت موئل التقديس أربعه
 وكعبة الروح بالتوحيد شاهدة كالشمس تسطع نوراً وهي منبعه



رعى الله ركبا يئموا أرضها التي
 أجادت يد الغيث الهتون صقالها (٣)
 ولما أموا في الشري بيلملم
 لأجسادهم احرامها قد حلالها (٤)
 ولبوا فبلوا بالنسيم عليهم
 وحبوا فأحبوا للنفوس كمالها (٥)
 يميناً بهبات النسيم بسحره
 لقد فاز من مدت إليه شمها (٦)
 شدا باسمها الحادي فحرك ساكناً
 وذكر موصول الحنين اتصالحا

ولما رأوا أعلامها هاجَ شوقُهُم
 وحتّوا مطاياهم وحلّوا عقابها
 وحين تجلّى وجهُها خضعوا له
 فله ربّي ما أعزّ جلالها
 وطافوا بها مستبشرين بأنعم
 من الله لم يُحصوا بعدّ خصالها
 رَقُوا لِلصِّفَا بِالْحَمْدِ شُكْرًا لِسَعِيمِ
 وبالمرّوة النفسُ اشتفت ما بدا لها^(٧)
 وقد أشعدوا يومَ الصُّعودِ وأسعفوا
 ونالتْ نفوسُ الطّالِبِينَ مَنَاهَا
 وفي عرفاتٍ عُرفوا بسعادةٍ
 عليهم بجمع الشَّمْلِ شامُوا اشتمالها^(٨)
 فكم تائبٍ مستغفرٍ مُتَيِّقِنِ
 بمغفرةٍ تهمي بفيضٍ سجاها^(٩)
 وذي عِلَّةٍ قد طال عُمرُ مطاها
 فقصّرَ عفوُ الله عنه مطاها
 وإذ نفروا فازوا فهم نَفْرُ التُّقَى
 سَقَتَهُمْ سَحَابُ العَفْوِ صَفْوًا زُلاها^(١٠)
 بمزدلفاتٍ أقبِلَ الوَفْدُ مُقبلاً
 ولاقتْ من البُشرى النُّفوسُ اقتبالها
 أفاضوا دموعاً إذ أفاضوا مخافةً
 من البين أحييت للنفوسِ اعتلالها



وعاود لتوديعِ الحما سُبُقَ الحما
 وألسنةُ الوفدِ استطابتُ سؤاها
 وزمزم حادِهم بززمَ مُرصدٍ
 تروى وذي صدّ حَبْتُهُ وصاها (١١)
 وبل غليلاً في طواف وداعه
 فأحسن لكن كم دموع أساها (١٢)
 وقد رَفَعُوا أيدي الدعا بانكسارها
 وجَزَمَ الرّجا حتّى أتى الفَتْحُ حاها
 وما استكثروا من أدمع مستهلّةٍ
 نهار استقلُّوا للرحيل انهماها (١٣)
 وقَلَّ لقومٍ فارَقوا الكعبةَ البكا
 وقد فَقدوا أفضاها واكتماها
 وقد آل ذاك الصَّحْبُ بَعْدَ وداعها
 إلى أسفٍ إذ فارَق الصَّحْبُ آها (١٤)
 أجادوا وجدّوا في السرى قاصدي الحما
 حمى وقد نفّروا ضبّ الفلا وغزاها (١٥)
 وشارَفَ من أرضِ الحصيْبِ دليهم
 عرائس روضٍ حين أرخت دلاها (١٦)
 أغاني حادِهم شكراً لرهم
 وأدعيةً لا يكتُمون احتفاها (١٧)
 إلهي مثلُ الشمسِ لاحتْ ذنوبنا
 فيسر علينا بالمتاب زواها

أحلنا على العفو العَمِيمِ فإِنَّا
سئمنا على التَّسْوِيفِ دَهْرًا محالها
وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٍ
صلاةً مَدَى الدُّنْيَا تُدِيمُ اتِّصَالَهَا

الهوامش :

- (١) معلنة: الجاهر به .
- (٢) المفازة، وهي الأرض الواسعة البعيدة الأطراف .
- (٣) يمموا: قصدوا، الهتون: المدرار .
- (٤) يللم: مكان يحرم منه الحاج القادم من اليمن .
- (٥) بلوا: شفوا .
- (٦) بسحرة: وقت السحر .
- (٧) رقوا: سعدوا .
- (٨) شاموا: نظروا وتطلعوا .
- (٩) تهمي: تتابع وتعمر، السجال جمع سجل، وهو ذنوب الماء .
- (١٠) نفروا: يقصد التفير إلى مزدلفة .
- (١١) زمزم حاديهم: صاح بصوت مدو، مُر صد: أي: مرأيها الظامئ . تروئ: تضلع .
- (١٢) ويل: روى . غليلاً: شوقاً .
- (١٣) انهمالها: سيلائها .
- (١٤) آل: رجع . آله: أهلها .
- (١٥) السرى: المسير .
- (١٦) شارف: رأى عن قرب . الحصيب: مكان باليمن .
- (١٧) احتفالها: التجمع بها .